الرّحلة: باكورة التطوّع اللّغوي

The Journey: The first language volunteering

د.خير الدين هبّال[1] / جامعة محمّد بوضياف -المسيلة (الجزائر)، *Hebal.kheireddine@univ-msila.dz*

تاريخ الاستلام: 10/ 2022/04 تاريخ القبول: 10/ 2022/06 تاريخ النشر: 30 /2030/06

ملخص

أصبح الاهتمام باللغة وتطورها ضرورة ملحة لمسايرة تغيرات المجتمع والتخطيط لها من خلال تقنين استعمالاتها، ولعل أهم روافد التغيرات هوالتطوّع اللغوي. فالتطوع اللغوي جهود فردية وجماعية مقنّنة، تعمل على تطوير وخدمة لغة ما في أشكال متعددة لدوافع ثقافية وهوياتية، وكثيرا ما كانت الرحلة سببا في استثارة بعض الناس للاهتمام بلغتهم تقليدا وتأثرا بما شاهدوه ولاحظوه في بيئات أخرى.

الكلمات المفتاحية: التطوع اللغوي، الرحلة، التخطيط اللغوي، اللغة العربية.

Abstract:

Paying attention to the language and its development has become an urgent necessity to keep pace with the changes of society and plan for them through legalizing its uses, and perhaps the most important tributary of changes is linguistic volunteering. Linguistic volunteering is individual and collective legalized efforts that work on developing and serving a language in various forms for cultural and identity motives.

Keywords: *the language volunteering – The Journey – The language planning – The Arabic language.*

[1] د.خير الدين هبّال ، الإيميل: *Hebal.kheireddine@univ-msila.dz*

مقدمة:

نشأ العربيّ في شبه الجزيرة العربية كثير الاعتزاز بلغته شديد الحبّ لها، لا يجنح عنها إلى غيرها مهما خالطته الرطانات، أو شابت بيئته العجمةَ، وقد كان من عزيز شأنها وعلوّ شأوها لديه أن سمّى نفسه عربيًّا وسمّى غير الناطقين بها أعاجِما، فجعل اللغة هي الفيصل الذي مايز به غيره من البشر، كما كان العربيّ يراعي في حديثه جودة العبارة، وجمال الأسلوب، وسلامة المخرج، وحسن الأداء، وروعة البيان، وقمّة البلاغة... فكان لسانُه♦ ذا وقعٍ جمالي، وكلامُه♦ ذا مقامِ إجلالي، فنثر وأوصى وراسل، وارتجز وقال الشّعر، فعُلِّق أجوده على جدران الكعبة بيت الله الحرام أجلّ بيت بُني على سطح المعمورة. فرفع العربيّ لغته منزلة القداسة، وارتفع بها منزلة القدّيس, فلمّا آنس من نفسه الفخر بها والرّكون إليها، أرسَل الله خاتم أنبيائه فيهم بمعجزة من جنس ما برعوا فيه من اللغة وفنونها؛ فأنزل القرآن الكريم كلامَ الله تعالى الذي تحدّى به أرباب الفصاحة وأساطين البيان منهم فأعجزهم؛ حتى دخلوا في دين الله أفواجًا، فشرُفت اللغة بكتاب الله؛ وحفظت بحفظ الله لكتابه، وارتفع مقام العربي بالقرآن واللغة معًا.

ولمّا اتّسعت رقعة البلاد الإسلامية، وانتشرت المدنية؛ تمازجت الأمم بفضل الإسلام فانصهرت الأمّة الإسلامية على اختلاف لغاتها وثقافاتها ومشاربها في بوتقة واحدة شكّلت الحضارة الإسلامية، ومن هنا بدأ اللّحن والرطانة يتسرّبان إلى اللّسان العربي القحّ، فنفر نفر من أهل العربيّة يذودون عن حياضها ويحمون بيضتها كما يذودون عن حياض الدّين، ويحمون بيضة الإسلام، فتتبّعوا داء اللّحن قبل استفحاله، وبذلوا من أموالهم وأنفسهم كلٌّ بحسب حاله، ومن هنا كانت نشأة علوم العربية، التي ابتدأت بالرّحلة؛ والنزول إلى البوادي لجمع الغة العربية الفصيحة، فكانت باكورة التطوّع اللّغويّ. وفي هذا الصّدد تأتي هذه الورقة لتنير جوانب من الإشكالية الآتية:

- ما الدّوافع المعتبرة التي أسّست للرّحلة كأول مظاهر التطوّع اللّغوي عند العرب؟
- كيف ترسّخت فكرة هذا النمط من التطوّع اللّغوي على مرّ عدّة قرون؟ وكيف ظهرت مخرجاتها في الدرس اللغوي؟ هذه أسئلة وأخرى تحاول هذه الورقة أن تشخّصها لتجيب عليها، لعلّها تسهم في دعم التطوّع اللّغوي الذي أصبح ضرورة مُلحّة لبناء جيل يعتز بانتمائه وهُويّته.

قبل الحديث عن الرّحلة كفعل فرديّ طوعيّ نابع من إيمان الذات الفاعلة بضرورة الفعل استنادا إلى مرجعيات واضحة، وأهداف مسطّرة، وتضحيات مفتوحة قد تأتي على الأموال والمُهَج، وجب الحديث أوّلا عن التطوّع اللّغوي؛ مفهومِه، ومظاهره، وشروطِه، ليتسنّى لنا قياس مدى كون الرّحلة في طلب اللغة تطوّعا لغوّيا، وهل تتساوى درجاته، أم تختلف من فرد لآخر، ومن طبقة لأخرى، ومن بلد لبلد؟

مفهوم التطوّع اللغويّ:

أ- لغة: التطوّع مشتقّ من الجذر (ط و ع)، وحاصل معناه فيما ورد في المعاجم العربية الموافقة والانقياد؛ فهو نقيض الكَرْهِ. جاء في معجم العين "والطّوع نقيض الكره، تقول: لتفعلنّه طوعا أو كرها؛ طائعاً أو كارِهاً، وطاع له إذا انقاد له... وتطوّع: تكلّف استطاعته، وقد تطوّع لك طوعاً إذا انقاد... والتَّطوُّعُ: ما تبرّعت به ممّا لا يلزمك فريضته"[1].

والتطوّع بهذا المعنى يكون مبعث فعله نابع من ذات الفاعل وقناعته ورضاه واعتقاده في الفعل الذي يطَّوَّعُ به، وهو معنى قريب من المعنى الاصطلاحي.

ب- اصطلاحا: التطوّع اللّغويّ "إرادة ومهارة تُترجَم إلى مبادرات وجهود فردية وجماعية مقنّنة، تُسهم في تقديم خدمة ملائمة للغة العربية، ومعالجة تحدّياتها، واستغلال فرصها، دون توقّع منفعة مادّية"[2]، أو هو في مفهومه العامّ "نشاط اختياريّ ممنهج، يقوم به الأفراد، أو تقوم به الجماعات؛ خدمة للّغة، من غير انتظار جزاء ماديّ"[3].

لقد أشار التّعريفان بوضوح إلى أبرز أركان التطوّع اللّغوي التي أشرنا إليها سابقًا **وأوّلها**؛ أنّه إرادة نابعة من الذات الحرّة الفاعلة القادرة الواعية اتّجاه اللّغة، إذ لا يمكن أن يُسمى التطوّع اللّغويّ تطوّعا في إطار أداء المهام المسندة في هذا الميدان، لقاء أجر ماديّ أو اتّفاق مبرم بين المتطوّع والجهة التي ترعى التطوّع سواء أكان فردًا أو جماعة أو مؤسسة، أو هيئة حكوميّة... لقاء مكاسب يحكمها عقد بين الطّرفين؛ إذ يخرج التطوّع في هذه الحالة إلى باب "الالتزام اللّغويّ" كمصطلح يُقابل مصطلح "التطوّع اللّغويّ" من حيث الماهية والمفهوم. **وثانيها**؛ المهارة وهي تمثّل بالأساس حسن القيام بالفعل على وجهه الأكمل، وفق منهجية مسطّرة سليمة تبلغ أهدافها بدقّة وسلاسة وفي الوقت المحدّد، وذلك من خلال حسن استخدام الوسائل اللازمة والمتاحة، مع معالجة المشكلات التي قد تطرأ أثناء العمل، وضرورة الإحاطة بكلّ المعطيات من أجل استخدامها الصحيح زمانا ومكانا. والمهارة قد تكون فطرية وقد تكون مكتسبة بكثرة الدّربة والمِران. **وثالثها**؛ أنّ التطوّع اللّغويّ يساهم فيه الجميع دون استثناء، سواء أكان فردًا أم جماعة، ذات طابع رسميّ، أو غير رسميّ، المهمّ أن يقدّم خدمة حقيقية للّغة العربية. **ورابعها**؛ أنّ مجال التطوّع اللّغويّ هو اللّغة؛ وبالطّبع فاللغة المقصودة هي اللغة العربية؛ باعتبار انتمائنا الحضاري وهويتنا اللّغوية لاسيما على الصّعيد الرّسميّ. **وخامسها**؛ أن يكون دون مقابل ماديّ متّفق عليه مسبقًا، إذ قد يحصل بعد أداء الخدمة ودون أن يكون التزاما من جهة ما، على سبيل التكريم والاحتفاء أو التحفيز. كما أنّ رَومَ المنفعة ممّا يدخل في طبيعة النّفس البشرية إجمالا؛ ولا يُخرج التطوّع اللّغويّ عن معناه، إذ الإنسان في مجمل أحواله لا يقوم بفعل من الأفعال عبثًا دون قصد، والقصد لا يكون إلّا لجنب المنفعة للنفس أو للغير.

هذا مفهوم التطوّع وهذه بعض حدوده، وملامحه، فماذا عن الرّحلة؟ وهل تعتبر الرّحلة تطوّعًا لغويّا؟ وهل تستوي دوافع الرّحلة عند مختلف الطبقات والأمصار؟

1-مفهوم الرّحلة:

للرّحلة في الموروث العربيّ مفهومان اثنان: **المفهوم الأوّل** يتّصل بالأدب، ومجاله بناء القصيدة العربية حيث إنّ وصف الرّحلة والرّاحلة، من أهمّ عناصر المقدّمة الطّلليّة، وما فيها من "استهلال بالبكاء على الأطلال، ثم الانتقال إلى وصف الرحلة والنسيب"[4]. وهذه النّحلة هي نحلة الشعراء الجاهليين ومن سار على سَمْتِهم في بناء القصيدة القديمة "فالشّاعر يفتتحها بالوقوف على الأطلال، والحديث عنها ووصفها، ثم يعرض بعضاً من مناحي فُتوّته؛ كالغزل ووصف الخمر، وقد يصف لنا رحلته في الصحراء ليعرض من خلال ذلك للحديث عن ناقته والفلاة الواسعة التي قطعها؛ ثم يمضي إلى الغرض الأصيل من القصيدة، فيمدح أو يفتخر أو يعاتب"[5].

هذا النّوع من الرّحلة؛ وإن كان يحمل بين جنباته نوعًا مُهمّا من أنواع التطوّع اللّغوي ذي الطّابع الإبداعيّ، القائم في كثير من الأحيان على مثيرات حرّكتها الرّحلة كفعل طوعيّ قام به الشّاعر، فشحذ من خلاله أخيِلة عجيبة تجسّدت في عطاء إبداعيّ قلّ نظيره؛ فإنّه ليس مقصودًا ممّا يوحي به العنوان؛ إذ قصدُنا في هذه الورقة النوع الثّاني من الرّحلة.

المفهوم الثاني للرّحلة هو ضرب أكباد الإبل إلى البوادي العربية التي صحّ لسانُها؛ وسلِم من اللّحن والخطأ والخطل؛ بغية جمع لغة الأعراب الفصحاء الأقحاح، وحمايتها من الاندثار نتيجة خطر اللحن الفاشي في المدن إثر اختلاط العرب بالعجم، وهذا هو الذي يمّمنا وجهنا نحوَه، ووسمناه بـ"باكورة التطوّع اللّغويّ". فكيف نشأت الرّحلة إلى البادية؟ وما هي أهم دوافعها ومخرجاتها؟

لعلّ أوّل ما طُلب في لغة العرب هو معاني ألفاظها الدالّة على ما استُغلِقَ على الصحابة من معاني آيات الكتاب الحكيم، إذ كثيرا ما تُشكّل معاني ألفاظ القرآن الكريم مشكلة في فهم معاني الآيات فهما صحيحا، ومن هنا لاذ الصّحابة الكرام –رضي الله عنهم- بكلام العرب لاستجلاء المعاني وإجلائها، وكثيرا ما كان أعلام الصّحابة المفسّرون يستشهدون على مذاهبهم في التّفسير بكلام العرب، فلا غرابة إذن أن نجد نافع ابن الأزرق[6] يجمع كتابا كاملا في مرويات ابن عبّاس في التّفسير -وهو حبر الأمّة- معتمدا على ما ورد في الشّعر العربي؛ حيث كان يسأله عن المعنى وما إن كان قد ورد في الشّعر، فيذكر له المعنى ويشفعه بما ورد وفاقه في أشعار العرب، كما رُوِيَ عَنه أنه كان يُسأل عن القرآن؛ فينشد فيه الشعر[7]. وقد ذكر أبو العبّاس ثعلب في مجالسه عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس: "إذا اشتبه عليكم شئ من القرآن فاطلبوه في الشعر"[8].

ومع أنّ أبا العبّاس قد رفع هذا الأثر إلى النبيّ –صلى الله عليه وسلم- ولم أقف عليه في كتب الحديث، فإنّه قد أُثر عن ابن عبّاس -رضي الله عنهما- من طرق عدّة، تثبت كلّها أنّ كلام العرب عموما، والشّعر خصوصا؛ كانا معتمد علماء القرآن في التفسير، وهذا يُبرّر نزوع العرب إلى حفظ الشّعر وتلقّفه من أفواه العرب الخلص وتدوينه.

ومن نماذج ما جاء في هذا الصّدد ما رواه القالي قال: "وأَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرِ بن الأنباريّ، عَنْ أبيه، قَالَ: أتى أعرابي إِلَى ابن عباس، فقَالَ:

تخوّفني مالي أخٌ لي ظالمٌ فلا تخذلني اليوم يا خير من بقي

فقَالَ: تخوّفك أي تنقّصك؟ قَالَ: نعم، قَالَ: الله أكبر! {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} [النحل: 47] أي تنقّص من خيارهم[9].

ورُوِيَ عن ابن عباس قال: "كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض؛ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرتها. أي أنا ابتدأتها"[10].

يمكننا أن نلحظ في كلام ابن عبّاس –رضي الله عنهما-القيمة الكبيرة لكلام الأعراب الفصحاء، والمنزلة الأكبر لمعاني القرآن الكريم التي هي شغل الصحابة الشاغل من أجل فهمها واستيعابها، ففي الرواية الأولى؛ جاءه أعرابيّ مستفتيًا وطالبا للقضاء والنّصرة، معتمدا على بلاغته وتأثيره في نفس من طلب نصرته، والمفتي القاضي النّاصر أغزر علما، وأرفع درجة من المستفتي المغلوب على أمره؛ ولكن كلمة واحدة من الأعرابيّ شدّت انتباه ابن عبّاس -رضي الله عنهما- لتعلّقها بما هو أهمّ عنده وهو استغلاق معنى كلمة (تخوُّفٍ) عليه، فانقلب

الموقف رأسًا على عقب، إذ أصبح ابن عبّاس –رضي الله عنهما- هو المستفتي، فنجده يسأل الأعرابيّ: (تخوّفك أي تنقّصك؟)، ثمّ نجده يطير قلبُه فرحًا من جواب الأعرابيّ بالإيجاب، فيرتفع صوته بالتّكبير، ويستحضر الآية مفسّرًا لها، بالرّغم من أنّها لم تكن موضوع الحديث.

وفي الرواية الثانية؛ يأتيه أعرابيان للتقاضي في خصومة بئر، ويطلبان القضاء، لكن ذهن ابن عبّاس –رضي الله عنهما- ينصرف إلى معنى الآية في سورة فاطر، بمجرّد أن تلقّى عبارة الأعرابيّ وفهمها على وجهها.

وهنا نقف عند ملحوظة مهمّة؛ وهي انشغال فكر ابن عبّاس –رضي الله عنهما- بمعاني القرآن الكريم في حلّه وترحاله، وجميع أحواله، وتقديمه على القضاء في الخصومات التي تأتيه هذا من جهة، ومن جهة ثانية أخذه بكلام الأعراب ومؤدّى كلامهم، ومعانيهم المقصودة، وألفاظهم المستعملة واستشهاده بها على معاني القرآن الكريم، وتسليمه بصحّتها، بالرّغم من قلّة علمهم، وجفاء طِباعهم، وهذا يُبرِز بوضوح أنّ المعَوَّلَ عليه في أخذ اللّغة هو قوّة الطّبع، وصفاء السليقة، وأصالة اللّسان.

إنّ تعلّق الرحلة إلى البادية طلبًا للّغة بالقرآن الكريم وتفسيره؛ ثمّ تتبّع أوجه قراءاته مِمّا لا يُدرك من خصائصها فيه إلّا بالسّماع؛ كالإمالة والتّفخيم والقلقلة والترقيق[11]... أجّج في نفوس الغيورين على كتاب الله -عزّ وجلّ -إرادة فذّة لخدمته، تفسيرا وقراءة وفقهًا... باذلين في ذلك أموالهم ووقتهم وجهدهم وأنفسهم، كما أنّ شيوع اللّحن على ألسنة الناس وإرساء أبي الأسود الدُّؤَلِيّ (ت:69ه) المبادئ الأولى لعلم النّحو؛ الذي ما لبث أن أخرج شطأهُ فآزره؛ فاستغلظ؛ فاستوى على سوقه، فأصبح أكثر العلوم رواجًا، جعل الرّحلة إلى القبائل العربيّة الفصيحة مَحَجَّ طلبة العِلم؛ في حملة تطوّعية قامت عليها علوم اللغة كلّها فيما بعد، ولم يكن هؤلاء الأفذاذ سوى متطوّعين عن إرادة وعزم ترجمتهما المخرجات العظيمة في جمع اللغة وتبويبها، والرقيّ بمختلف علومها حتى قاربت منزلة الكمال.

2-الرّحلة إلى البوادي:

يمّم الكثير من طالبي العربية وجوههم تلقاء بادية العرب، فأمّوا قبائل الحجاز ونجد وتهامة، "والذين عنهم نُقِلت اللغة العربية وبهم اقْتُدِي، وعنهم أُخِذَ اللسانُ العربيُّ من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد؛ فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخِذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتَّصْريف، ثم هذيل وبعض كِنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"[12]. ولمّا راج علم اللّغة وعلا شأنه وتقدّم شأوُه وفشا في النّاس أصبحت لفصحاء الأعراب رحلات إلى الحواضر، فكان النّاس يلتفون حولهم يطلبون اللّغة الفصيحة، فيُحدّثونهم ويروون الغريب من اللّغة وأخبار العرب وأشعارهم وأيّامهم، ناهيك عن مذاهب قبائلهم في الكلام، وكان النّاس يُسجّلون ما يتلقّفونه من أفواههم علما لا سبيل إلى الطّعن فيه؛ إذ جُعل السّماع من الأعراب أصل الأصول وطريق الوصول، ثمّ يليه القياس؛ كآلية عقلية علمية فرضتها طبيعة المنهج العلميّ الذي اتّخذوه في علوم العربية المعيارية كالنّحو مثلا.

ونذكر من أوائل هؤلاء الرّواة اللّغويين من البصريين الذين كان لهم قصب السّبق في هذا المجال:

1- **أبا عمرو بن العلاء البصري** (ت:154ه):

كان من أوائل من اتّخذ من مشافهة الأعراب ديدنا في طلب العلم، وأُثِرَت عنه الرّحلة إلى البادية، وهو رأس الطّبقة الرّابعة[13]، وأحد القرّاء السّبعة، وكان رحمه الله صدوقا حجّة ثبتًا، وقد رُوِيَ عنه أنّهُ كان يكتب

ما يسمعه عن الأعراب حتّى ملأ بيتًا إلى قريب من السّقف[14]؛ كما أنّه كان أعلم أهل زمانه بلغات العرب ولهجاتها؛ قال الجاحظ: "كان أعلم النّاس بالغريب والعربية وبالقرآن والشّعر، وبأيّام العرب وأيّام النّاس"[15]. وهذا يدلّ على عُلُوّ كعبه في علوم العربيّة كلّها، وقد كان يقول فيما رواه عنه الأصمعيّ: "ما سمع حمَّادٌ الرَّاوية حرفًا قطّ إلا سمعتُه"[16]. وكان أبو عمرو أسنَّ من حماد. ومِمّا يدلّ على سعة اطّلاعه على لغات العرب ما رواه الأصمعي قال: "جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال: يا أبا عمرو، ما شيء بلغني عنك تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني أنك تجيز: ليس الطّيبُ إلا المسكُ (بالرفع)، قال أبو عمرو: نمت وأدلج الناس! ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع، ثم قال: قم يا يحيى -يعني اليزيدي- وأنت يا خلف -يعني خلف الأحمر- فاذهبا إلى أبي المهديّ (أعرابيّ الحجاز) فلقّناه الرفع؛ فإنّه لا يرفع، واذهبا إلى أبي المنتجع (أعرابيّ تميم) فلقّناه النصب، فإنّه لا ينصب"[17]. فكان من شأن الحجازيّ والتّميمي كما ذكر أبو عمرو بن العلاء، فنزع عيسى بن عمر خاتمه وأعطاه أبا عمرو وقال له: بهذا فُقتَ النّاس.

إنّ إجابة إبي عمرو هذه توحي باطّلاعه الواسع على كلام العرب ومذاهبهم، وتمييز الفروق الحاصلة بينهم في الأداء اللّغويّ، وهو دليل على أنّ أبا عمرو قد سمع كلام التميميّين وعرف سمته وأمْتَه، وكذلك فعل مع كلام الحجازيّين، وأصّل للفروق بينهما، ليترك المجال لمن بعده للجدل حول الأصول في الاستعمال العربي، وأسبقية السّماع على القياس أو العكس.

وكان من نهجه في الرّواية أنّه لم يكُن يحتجّ بشعر معاصريه، فقد أُثِرَ عنه أنّه كان يقول حينما يستحسن شيئا ما شعر جرير أو الفرزدق: "لقد حسُن هذا المولَّد حتى هممت أن آمُر صِبيَانَنا برِوَايته"[18]. وقالَ فيه الأصمعيّ: "جلستُ إليه عشر حِجَج، فما سمعتُه يحتجُّ ببيت إسلامي"[19]. وكان يرى أنّ أفصح الناس سافلة قريش وعالية تميم، ولذلك أثر عنه أنّه كان يقول: "لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية"[20] يقصد الجزء الغربي من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز. ومن تلامذة أبي عمرو بن العلاء يونس بن حبيب (ت:182ه) وكان من كبار رواة اللّغة والغريب؛ حيث ارتحل إلى البادية، وسمع عن العرب الفصحاء، وقد اختلف سيبويه إلى حلقته، وأخذ عنه، وكثيرا ما كان يذكره في كتابه.

2- الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت: 170ه):

وهو رأس الطّبقة الخامسة، ورأس علم العربيّة وعموده، أُثرت عنه الرّحلة إلى البادية وأخذ العلم عن فصحاء الأعراب فيها، ودليل ذلك أنّه لمّا سأله الكسائيّ عن مصدر علمه أجابه بأنّه من البادية، فقد رُوِيَ أنّه جلس إلى حلقة الخليل مدّة، وأُعجب بعلمه؛ فقال له: من أين علمك هذا؟ قال من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج إليها، وأنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ عنهم[21]. وهذا الأثر يدلّ دلالة واضحة على أنّ الخليل بن أحمد قد ارتاد البادية، وارتدّ منها بعلم غزير، مكّنه فيما بعد من وضع أوّل معجم عربيّ، وهو معجم العين؛ وإن كان النّاس قد اختلفوا في نسبته إليه، فنسبه بعضهم للّيث بن سيّار تلميذ الخليل، وقال بعضهم: إنّ الخليل كان قد عمل منه قطعة من أوّله إلى كتاب العين، وأكمله اللّيث، وقيل: "بل أكمله، وَإِنَّهُ بدأه بسياق مخارج الْحُرُوف، ثمَّ بإحصاء أبنية الْأَشْخَاص وأمثلة أَحْدَاث الْأَسْمَاء، فَذكر أَن مبلغ عدد أبنية كَلَام الْعَرَب الْمُسْتَعْمل والمهمل على مراتبها الْأَرْبَع من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير تَكْرِير اثْنَا عشر ألف ألف وثلثمائة ألف وَخَمْسَة عشر ألف وَأَرْبَعمِائَة وَاثنا عشر، الثنائي سَبْعمِائة وَسِتَّة وَخَمْسُونَ، والثلاثي تِسْعَة عشر ألفا وسِتمِائَة وَخَمْسُونَ، والرباعي أَرْبَعمِائَة ألف وَأحد

وَتسْعُونَ ألفا وَأَرْبَعمِائَة، والخماسي أحد عشر ألف ألف وَسَبْعمائة وَثَلَاثَة وَتسْعُونَ ألفا وسِتمِائَة: ذكر ذَلِك حَمْزَة الْأَصْبَهَانِيّ فِي كتاب الموازنة فِيمَا نَقله عَنهُ المؤرخون"[22].

ومن الرّحالة الذين أُثِرت عنهم الرّحلة إلى البادية من أئمّة الكوفيّين نذكر:

1- حمّاد الرّاوية (ت: 155ه):

قال ابن سلّام: " وكان أوّل من جمع أشعار العرب، وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيرَه، ويُنْحِلُه غيرَ شعره، ويزيد في الأشعار"[23]. وهذا ما دفع أهل زمانه أمثال يونس بن حبيب يرمونه بالكذب واللّحن ويعجبون ممّن يأخذ عنه[24].

2- أبا عليّ حمزة الكسائيّ (ت:189ه):

كان الكسائيّ فصيح اللّسان، عالما باللّغة والنّحو، وكان من القرّاء، اختلف إلى حلقة يونس بن حبيب، وربّما ناظره في بعض المسائل[25]. وقد تقدّم في خبره أنّه ارتحل إلى البادية؛ فأنفذ فيها خمسة عشر قنينة حبر كتابة عن فصحاء العرب سوى ما حفظ.

وكان الكسائيّ مقرّبا من الخليفة العبّاسيّ هارون الرّشيد، وكانت له مكانته المرموقة في قصر الخلافة، فهو مؤدّب ولدي الخليفة؛ الأمين والمأمون، وهو الذي ناظر سيبويه فيما يعرف في تاريخ النّحو العربي بـ"المسألة الزنبوريّة.

إنّ اقتصارنا على ذكر هؤلاء الأربعة الأعلام في الرّحلة ورواية اللغة، يمثّل اختيارا لأنموذجين اثنين لكلّ من المدرستين البصرية والكوفية في اللّغة والنّحو، وممّن طلب اللّغة في البادية من اللغويّين والنّحاة البصريّين: عيسى بن عمر وكان لغويّا ونحويًا بارزا، وخلف الأحمر؛ وكان عالما باللّغة شاعرا حصيفا، وقد سلك في البصريين مسلك حمّاد الرّاوية في الكوفيّين، فكان يضع الشّواهد وينحل الأشعار وهذا باعتراف منه في أواخر حياته، ثمّ أبو زيد الأنصاريّ؛ الذي كان كثير النّقل عن الأعراب، وزعم الأخفش أنّه أعلم من أبي عمرو بن العلاء[26]، ثمّ عبد الملك بن قُرَيب الأصمعيّ، وكان من أوثق النّاس في اللّغة، وأحضرهم بديهة، وأسرعهم جوابا، وكان يرى نفسه أعلم النّاس باللّغة بعد أبي عمرو بن العلاء[27]، وكان مقرّبا من الخليفة العبّاسيّ هارون الرّشيد.ثمّ أبو عبيدة معمر بن المثنّى، والنّضر بن شُميل... وغيرهم. ومن الكوفيّين نذكر المفضّل الضبّي، وأبو عمرو الشّيبانيّ، وعليّ بن حازم اللّحيانيّ، وأبو عُبيد القاسمُ بن سلّام، ويعقوب بن السّكّيت... وكلّهم رحّالة رواة ثقات.

وممّن اشتهر برواية اللغة من الأعراب الذين ارتحلوا إلى الحضر يتكسّبون بالرّواية: الخثعميّ؛ وهو راوية أهل الكوفة وأبو خيرة العدويّ، وأبو الدّقيش، وأبو مهديّة الأعرابيّ، وأبو المنتجع، وأبو البيداء الرّياحيّ؛ الذي نزل البصرة يُعلّم الصّبيان بأجرة، وأبو طفيلة، وأبو حياة بن لقيط، والفقعسيّ، وأبو صبح عبد الله بن عمرو، وأبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابي اللّغويّ، وأبو الجاموس ثور بن يزيد، وأبو دثار وأبو فقعس، وأبو الجراح، وأبو ثروان العكلي... والأربعة الأواخر هم الذين حكموا بين سيبويه والكسائيّ في مناظرتهما المشهورة[28].

3-دوافع التطوّع اللّغوي في الرّحلة والرّواية:

سبق وأن ذكرنا بأنّ فشو اللّحن والابتعاد عن سنن العرب في كلامها؛ بسبب دخول الأعاجم الإسلامَ، واختلاطهم بالعرب، وظهور المدنية والتحضّر، واتّساع رقعة الحضر على حساب البادية كان السّبب في نشوء

علوم اللّغة عامّة، وقد اختلفت الدوافع في الارتحال من الحضر إلى المَدَر، ومن المدَر إلى الحضر، وكلّ ذلك ساهم في خدمة اللّغة العربية وحفظها وحفظ تراثها الضخم، ويمكننا أن نرصد عدّة دوافع لهذا التطوّع اللّغويّ الهائل نختصرها فيما يلي:

1- **الدّافع الديني:** لقد كان الوازع الدينيّ هو الباعث الأساس لطلب اللّغة من مضانّها التي لم تشُبها شائبة اللّحن، ومن أهلها الذين ألِفوا معانيها وفقهوا مدلولاتها، لا سيما وأنّ هذه المدلولات مفرّقة في القبائل العربية، إذ إنّ القرآن الكريم أنزل بلغات العرب[29]، وليس لأحد أن يحيط بكلّ الكلام العربي إلا بطلبه في موطنه. وكان هذا دافعَ الصحابة والتابعين من المفسّرين الذين عكفوا على تفسير كتاب لله -عزّ وجلّ- وتبيّن وجوه قراءاته، وعلى رأس هؤلاء ابن عبّاس –رضي الله عنهما- وأبو الأسود الدّؤليّ، وأبو عمرو بن العلاء...

2- **الدّافع السّياسيّ:** وهو دافع أهل الكوفة الذين نازعوا أهل البصرة في علم النّحو الذي نشأ عندهم، ومن ثمّة لزم كلّ فريق طلبُ الحجّة للمذهب في كلام العرب الفصحاء، على أنّ الرّحلة سُنَّتْ في البصرة، بينما رواية اللّغة ازدهرت في الكوفة؛ التي كانت عاصمة الخلافة العبّاسيّة، وكان علماؤها أهل الحظوة عند بيت الخلافة العبّاسيّة. ومن أشهر هؤلاء: حمّاد الرّاوية، والكسّائيّ...

3- **الدّافع العلميّ والقوميّ:** وهو دافع أولئك الذين رغبوا في حفظ اللّغة العربيّة وبناء أسسها العلمية تكملة لجهود السّابقين، وأشهر هؤلاء: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ، وعيسى بن عمر، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، وسيبويه...

4- **الدّافع الاجتماعيّ والاقتصاديّ:** ونقصد به نزوع أصحابه إلى نيل الحظوة والمكانة في المجتمع، أو التكسّب باكتساب اللّغة، والعلم بأصولها والإحاطة بألفاظها ومعانيها باعتبارها العلم الأكثر رواجا في نهاية الدولة الأموية وصدر الدّولة العبّاسيّة، ومن أشهر هؤلاء: عبد الملك بن قريب الأصمعيّ، والمفضّل الضبّي، وأبو زيد الأنصاريّ، والأخفش مؤدّب ولد الكسّائيّ، والفرّاء... والأعراب الرّواة الذين ارتحلوا من البادية إلى الحاضرة.

على أنّ كلّ هذه الدّوافع لم تخرج الرّحلة إلى البادية ورواية اللغة والإحاطة باللّسان العربيّ عن مفهوم التطوّع اللّغويّ، إذ معظم من تعاطى النّحو واللّغة قد رغب في التقرّب من الخلفاء، وتصدُّر مجالس العلم في دواوينهم، والاستفادة من هباتهم وعطاياهم، فيما عدا النزر النّادر القليل كأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي.

4-إيجابيات التطوّع اللّغويّ في الرّحلة والرّواية:

لقد كانت الرّحلة إلى البوادي وجمع اللّغة وروايتها ذات خير عميم، ونفع عظيم، إضافة إلى مظاهر تطوّعيّة أخرى كثيرة، إذ من خلالها فُسّر القرآن الكريم على الوجه المقصود، والمعنى المحمود، ومن خلال التفسير بُنِيت الأحكام الفقهيّة بناءً صحيحًا ورُبّما من خلال اللّغة اختلفت اختلاف تنوّع وتعدّد؛ لا اختلاف تناقض وتضادّ، كما وُجّهت القراءات القرآنية توجيها صحيحًا وأُثبِتت أوجهُها في العربيّة، مصداقًا لقول النّبيّ -صلى الله عليه وسلم-: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[30]. كما منعت قواعدُ النّحو فشوَ اللّحن في تلاوة كتاب الله -عزّ وجلّ- فكانت الحصن المتين والنور السّاطع المبين.

حيث وُضعت القواعد واحتُجّ لها بالشّواهد، واكتمل النّحو باكتمال صرحه، وبسط مسائله وشرحه، وبلغ علم التّصريف الغاية؛ في مؤلّفات جليلة القدر؛ مثل: كتاب سيبويه في النّحو والتّصريف، وظهرت الرّسائل في الألفاظ والمعاني والغريب والنوادر؛ من مثل رسائل: الأصمعيّات للأصمعيّ، ونوادر أبي زيد الأنصاريّ، ونوادر أبي مسحل الأعرابيّ، والمفضّليات للمفضّل الضبيّ... كما أُلّفت المعاجم العربية ومنها: كتاب العين، وجمهرة اللّغة، والمنتخب من كلام العرب، وتهديب اللّغة... ودرس العلماء سنن العرب في الكلام نظما وبلاغة وعروضا، فتشكّل بذلك تراث لغويّ قلّ نظيره عند الأمم قاطبة، فكانت علوم العربية مفخرة هذه الأمّة بحقّ إلى جانب العلوم الأخرى، وهي كثيرة جليلة.

الهوامش:

♦: اللّسان بمفهوم فرديناند دي سوسور.

♦: الكلام بمفهوم دي سوسور

[1]: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، وآخر. دار مكتبة الهلال. مادة (ط و ع).

[2]: البريدي، التطوّع اللّغويّ، ص 30.

[3]: نفسه، ص 46.

[4]: إحسان عبّاس، تاريخ النّقد الأدبيّ عند العرب، ط 1. بيروت: 1983م، دار الثّقافة، ص112.

[5]: وليد قصاب، قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم. الرياض: 1980م، دار العلوم، ص218، 219.

[6]: يُنظر كتاب "مسائل نافع بن الأزرق".

[7]: أبو عبيد القاسم بن سلّام الهروي، غريب الحديث، تح: حسين محمد محمد شرف، ط1. القاهرة: 1984، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، ج5، ص413.

[8]: أبو العبّاس أحمد بن يحي ثعلب، مجالس ثعلب، تح: عبد السّلام محمد هارون، ط 2. مصر: 1984، دار المعارف، ج1، ص317.

[9]: أبو عليّ القالي، الأمالي، تح: محمد عبد الجواد الأصمعيّ، ط 2. مصر: 1926، دار الكتب المصرية، ج2، ص112.

[10]: القاسم بن سلّام، غريب الحديث، ج4، ص373.

[11]: يُنظر: عبد الرزّاق بن حمّودة القادوسيّ، أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجميّة -تاج العروس نموذجا- رسالة دكتوراه، إشراف عبد الجواد إبراهيم، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، دامعة حلوان: 2010، ص10.

[12]: محمد بن يوسف بن أحمد ناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تح: علي محمد فاخر وآخرون، ط1. مصر: 1428ه، دار السّلام للطّباعة، ج1، ص74.

[13]: محمد بن الحسن الزّبيدي، طبقات النّحويين واللّغويّين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2. دار المعارف، ص35.

[14]: يُنظر: أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1. بيروت: 1982م، دار الفكر العربي، ج4، ص133.

[15]: عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ط1. بيروت:1423ه، دار ومكتبة الهلال، ج1، ص261.

[16]: الزّبيدي، طبقات النّحويين واللغويّين، ص37.

[17]: مصطفى صادق الرّافعيّ، تاريخ آداب العرب، ط2. 1940م، دار الكتاب العربيّ، ج1، ص217.

[18]: عبد الرحمن بن أبي بكر السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، ط1. بيروت: 1998م، ج2، ص414.

[19]: نفسه، ج2، ص414.

[20]: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ، ط1. مصر:1995، دار المعارف، ج3، ص119.

[21]: أحمد بن إبراهيم الهاشميّ، جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، تح: لجنة من الجامعيّين. بيروت، مؤسّسة المعارف، ج2، ص178.

[22]: السّيوطيّ، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، المكتبة العصريّة ج1، ص559.

[23]: محمد بن سلّام الجمحيّ، طبقات فحول الشّعراء، تح: محمود محمد شاكر. جدّة، دار المدنيّ، ج1، ص48.

[24]: يُنظر: نفسه، ج1، ص48.

[25]: الزّبيدي، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص127.

[26]: يُنظر: نفسه، ص165.

[27]: يُنظر: نفسه، ص169.

[28]: يُنظر: الرّافعيّ، تاريخ آداب العرب، ج1، ص217.

[29]: يُنظر: ابن أبو جعفر محمد بن أحمد بن خالويه، إعراب القراءات السّبع وعللها، تح: أبو محمد الأسيوطي، ط 1. بيروت: 2006، دار الكتب العلميّة، ص19.

[30]: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: مصطفى ديب البغا، ط5. دمشق: 1993م دار ابن كثير، ج4، ص1909.